الدرس الرابـــع/ الأديب الشاعـر رمضان حمود:

أولا / مـولـده ونشـأتــــــــه:

ولد **رمضان حمود** سنة(1906) في مدينة(**غرداية**) جنوب الجزائر في بيئة محافظة، عُرف أهلها بتمسكهم الشديد بالدين، وقد حدّدت هذه البيئة خطواته الأولى، ووجهت تفكيره ونظراته، فكان منه هذا الشاب الذي اعتنق الإصلاح في جميع أفكاره، ودعا إلى الثورة في مقالاته وأشعاره. وكان لجده ووالده ووالدته فيما يبدو الأثر في تنشئته هذه النشأة الصالحة، وذلك بما زرعوه في نفسه منذ الصغر من استقامة في الدين وتمسك بالأخلاق الكريمة وحب الوطن. ولما بلغ(**رمضان حمود**) السادسة من عمره اصطحبه والده معه إلى مدينة(**غليزان**)غرب الجزائر، حيث كانت تجارته، وإذا بـ(حمود) يلتقي بالغربة وهو ما يزال طري العود، فعرف الاعتماد على النفس، وهو أحوج ما يكون إلى رعاية الأم وحنانها وعطفها. ويلتحق(رمضان حمود) بإحدى المدارس الفرنسية هناك بـ(غليزان) ويصبح مثالاً للنشاط في فصله والاعتناء التام بدروسه. ولكنه يصطدم منذ مراحل التعليم الأولى بمأساة التعليم في الجزائر المستعمرة، حيث يغدو التلميذ ممزقًا في أغلب الأحيان بين تعليمين أحدهما(**فرنسي عصري المناهج والأساليب**)، ولكنه يهدم الروحيات ومقومات الشخصية الجزائرية هدْمًا، وثانيهما(**عربي حر**) ولكنّه عقيم الأساليب ضعيف المناهج. ولذلك كانت نتيجة التعليم الأول الفرنسي، كما يقول رمضان حمود:(**لا ينبت شيئا، وإذا أنبت فالشوك والحنظل من سوء الأخلاق والتذبذب والخروج عن الجادة**)، أمّا الثاني التعليم (العربي الحر)، فكانت نتيجته على نفسه كالتالي(..**أربعة أعوام قضاها في حفظ القرآن، فلم ينل في النهاية إلا سورا مرسومة في دماغه لا يفقه منها شيئًا على أنّه لم يكن يحفظها كلها..**).

ولما رأى(**والده**) ما عليه التعليم في الجزائر من عقم وضياع، وما رآه من ابنه من استعداد وطموح قرّر أن يبعث به إلى(**تونس**)، وتحقق ذلك وكان ضمن بعثة علمية. وترسم(تونس) في حياة (**حمود**) فاصلاً بين حياتين، فراحت تبنيه أدبيًا وفكريًا واجتماعيًا وسياسيًا.. فكونته المطالعة والأندية الأدبية وأبرزت مواهبه الشعرية، وتقلب هناك في عدة مدارس: مدرسة (**السلام**)، فالمدرسة (**القرآنية الأهلية**) فـ(**الخلدونية**)، ثم جامع(**الزيتونة**). ثم عاد إلى أرض الوطن واستقر في مسقط رأسه(**غرداية**)، وراح يشارك في الإصلاح باندفاع وحماسة، وأثرى الصحف الوطنية بمقالاته وشعره ومن بينها جريدة (**الشهاب**) للشيخ عبد الحميد بن باديس، وجريدة (**وادي ميزاب**) للشيخ أبي اليقظان، وألّف في هذه الفترة كتابيه(**بذور الحياة**) وكتاب(**الفتى**)، وحصيلة شعرية والتي لم تتجاوز ثلاثين قصيدة. وقد انطفأت هذه الشعلة من الطموح والحماسة، وهي أشد ما تكون حيوية واضطرامًا، وتلك طالما عرف بها أصحاب

العقول الكبيرة والنّبغاء ورجال الفكر والأدب، وكانت بمسقط رأسه مدينة (**غرداية سنة1929**)، وتعتبر وفاته بمثابة فاجعة وخسران للحركة الإصلاحية، وقد نشر(ابن باديس) صورته بعد نعييه تكريمًا له مطلقًا عليــه(**فقيـد الأدب والنهـــوض**).

ثانيـــا/ رمضـان حمـود: رائـد الدعـوة إلى التجـديـد:

والحقيقة أنّ البداية الحقيقية للاتجاه الوجداني الرومانسي في الشعر الجزائري الحديث إنّما ظهرت على يد(**رمضان حمود**) في أواسط العشرينيات من القرن العشرين، وقد اتضح ذلك من خلال أرائه ونظرياته ومحاولة تطبيق ذلك في شعره، وظلّ صوت(رمضان حمود) متميزا في جو يطغى عليه التقليد والمحافظة، وبذلك يعتبر(**حمود**) رائد الدعوة إلى التجديد.وقد عبّر عن شغفه بالتجديد في مقالاته النقدية وأشعاره وخواطره، حيث قال: (**شغفي بالتجديد في كل شيء.. فما بالك بالتجديد الذي هو كل شيء**).

1ـ مفهـومـــه للشعـــر ووظيفتـــه: إنّ دعوته التجديدية لها جانبان: جانب انتقاد المفهوم التقليدي المحافظ للشعر ووظيفته متمثلا في مدرسة الإحياء والبعث العربية، وجانب الدعوة إلى مفهوم جديد وتصور معاصر من خلال منظور وجداني رومانسي، وبذلك كان(**رمضان حمود**) يسير في الاتجاه الذي سار فيه الشعراء والنقاد الرومانسيون في أوروبا، ولا سيما في فرنسا، وهو بناء نظريات شعرية جديدة على أنقاض نظريات كلاسيكية قديمة. حيث نجده يهاجم التقليديين قائلا:(**قد يظن البعض أنّ الشعر هو ذلك الكلام المنثور المقفى، ولو كان خاليا من معنى بليغ، وروح جذاب، وأنّ الكلام المنثور ليس بشعر لو كان أعذب من الماء الزلال، وأطيب من زهور التلال، فهذا ظنّ فاسد واعتقاد فارغ وحكم بارد..**) ويمضي(**حمود**) في نقد شعراء عصره، ممن عنوا بالشكل والوزن والقافية، وأهملوا روح الشعر المنبثقة عن الانفعال الوجداني والصدق الفني، إذْ يقول:(**نعم هو منزلة من أن يتناوله هؤلاء النظامون، الماديون عبيد التقليد، وأعداء الاختراع، إذْ لا يدرك كُنْهَه إلاّ من له فكر ثاقب وعقل صائب، ذو ذوق سليم، حتى يقدر أن يستخرج دُرَّه من صدفه، وسَمينُه من غثّه ومن نَبَش دفائنه من غير هاته الآلات الثلاث فقد حاول مستحيلا أمرا عسيرا**) وكان من الذين:

أتـــوا بكـلام لا يحرك سامعـــــا   عجوز له شطر وشطر هو الصـــدر

وزُيّن بـــالوزن الــذي صار مقفى   بقـــافية للشـط يقـذفهـا البحـــــــر

وقالوا وضعنا الشعر للنّاس هاديا   ومــا هـــو شعـر ساحر ولا نثـــــر

ولكنّــــه نـــظم وقـــول مبعثــر وكــذب وتمــويه، يمــوت بـه الفكــر

فقلت لهــم لمّــا تباهوا بقولهـم ألا فاعلمـوا أنّ (الشعـور) هـو الشعــر)

وراح يدعو إلى وضع الشعر العربي في إطاره الصحيح ليتماشى مع واقع الأمة العربية التي أخذت تفتح عينيها للنهضة، حيث يرى(حمود) أنّ هناك أحكام خنقت أنفاس الشعر العربي الحديث وقتلته(..**بالتحسينات والاستعارات الكاذبة وإفراغ المعنى القبيح في اللفظ المليح، وإلزام ما لا يلزم وتعقيد العبارات، والإتيان بالكلمات الغريبة الغليظة الشبيهة بصلب الحجر)**. وهو عندما يقف هذه الوقفة المهاجمة للشعر التقليدي، إنماّ يريد أن يبين عن مفهومه للتجربة الشعرية وبالأحرى للتجربة الفنية إذ يقول:**(فيا أيها الأدباء اجعلوا نصب أعينكم إعلاء الأدب العربي وترقيته.. فإنّ لكل جيل أدب مخصوص به، لا ينبغي للجيل الذي يأتي من بعده أن يقلده فيه، فحياة الأمس غير حياة اليوم وحياة اليوم غير حياة الغد)**.

وعلى الرغم من تأثر**(حمود)** الواضح بالتيار الرومانسي، إلاّ أن رومانسيته لم تكن منعزلة متقوقعة على ذاتها، ولكنها كانت رومانسية ثورية، تؤمن بالوجدان الفردي المتفاعل مع الوجدان الجماعي، وتتشابك عنده(**الأنا والآخر)** في كل ما كتب تشابكًا رائعًا، ذلك لانّ النّفس الرومانسية حسّاسة إلى أبعد حدّ تنعكس عليها آلام المجتمع كلّه، فهي من هذه النّاحية تعيش الواقع بكل أبعاده وأشكاله. ومن ثم كان **(رمضان حمود)** ينطلق في مفهومه للتجربة الشعرية من هذا الإحساس، ويولي الاهتمام أكثر بالمضمون، مضمون يستوعب واقع الأمة العربية المضطهدة، ويتغنى بآلامها وآمالها، إذ يقول : **(الشعراء روح الشعوب، فإذا نصحوا لها سارت وتقدّمت، وإذا خانوها فالسقوط والاضمحلال حظها..إن الشعر الذي لا يحرك نفوس العامة ولا يذكرها في واجبها المقدس، ووطنها المفدى، فهو خيانة كبرى، وخنجر مسمم في قلب المجتمع الشريف..)** ومن ثم تغدو دعوته إلى تحرير الشعر من القوالب والأطر التقليدية في حقيقتها دعوة إلى تحرير الإنسان من الظلم، مهما تكن صورة هذا الظلم جمودًا فكريًا أو استعمارًا دخيلا:**(فيا أيّها الشعراء الأحداث بكم تحيا الأمة وبكم تموت ـ لا قدر الله ـ فأنتم رسل الحرية والسعادة الأدبية إن شئتم وأنتم النّعاة إن أردتم..)**.

2ـ قـضيــة الـصدق الـفـنّــي : لقد عرفت هذه القضية نقاشًا حادّا بين القدامى والمحدثين في الشعر العربي، بين من يطلق على التجربة الشعرية النّاجحة شعار:**(أحلى الشعر أكذبة)**، وبين من يرى أنّ الأدب لا يكون صادقًا إلا إذا عبّر فيه الأديب عن عاطفته التي أحس بها، وأعلن عن عقيدته التي

اعتقدها، ووفاقًا للمبدأ الأخير كان الشعر في نظر(حمود) هو(**النّطق بالحقيقة العميقة الشاعر بها القلب، والشاعر الصادق قريب من الوحي)**. والحق أنّ نظرته هذه تكتمل مع شخصيته فقد عُرف عنه كره شديد، ومَقْتٌ قوي للتقليد والجمود، أوَ لمْ يقل عن مذهبه الفني:(**ولست من الذين يكتبون للتسلية أو الترويح عن النّفس، ولا من الذين يتلذذون بالعبارات الرقيقة.. ولن أكتب لأفيد وأستفيد، أكتب لا ليقال أنّه كتب، بل ليقـول لي ضميري أنك قمت بواجبك وأديت ما عليك فكن مطمئنا)**. وما دام الشعر (**مصدره النّفس الإنسانية فعلى المثقـف أن يرسل كلامه من نفس متقدة وروح ملتهبة وقلب مملوء إحساسًا وشعورا فتقبله الأفئدة والصدور.. إذن مصدر الشعر: النفس والروح والقلب، ومادته: الإحساس والشعور**).

3 ـــ والحديث عن الصدق الفنّي يقودنا حتمًا إلى الحديث عن(**العاطفــة**) ودورها في الشعر، تلك القضية التي وجدت كل الاهتمام من(**رمضان حمود**) حين أعتبر(**العاطفة**) أول عنصر يساعد على إنجاح الشعر وإخفاقه. وقد حذر الأديب النّاشئ من أنّ يتقدم إلى مهنة الشعر والأدب(**بزاد النّحو والصرف، أو العروض والقوافي أو البلاغة.. ما لمْ يسعف كل ذلك في نفسه وازع قوي نحو التجربة الأدبية**) فهو(**ليس بضاعة كما يقولون ولكنه إلهام وجداني ووحي الضمير**).لأنّ أدَبَ أُمة هو مجموع (**تأثيراتها القلبية وانفعالاتها النّفسية ومرآة قوتها المعنوية ولا حياة لها بدونه**)، والواقع أنّ المذهب الرومانسي في الأدب كان يعطي أهمية عظيمة للعاطفة في التجربة الفنية كما جعل للقلب أعلى قوة من العقل، باعتباره هاديًا للإنسان ـ بحكم الدوافع الطبيعيةـ إلى مجالات الحق والخير والجمال والعدل.. .

4 ـ اللّغـــة الشعريـــــة: ولم يكن انشغال(**حمود**) باللّغة نتيجة رد فعل قوي متحمس ضد الجزالة والفخامة التي هي من ميزات ـ القصيدة التقليدية ـ وإنّما هو نتيجة إدراك عميق لما للّغة من دور في إنجاح التجربة الشعرية أو إخفاقها، واللغة التي يفضلها(حمود) هي المتمشية مع روح العصر المتطورة معه المستجيبة لمتطلباته.. لغة سهلة التناول.. بسيطة تصل إلى النّفس الإنسانية بدون جهد أو تكلف.. كما لا تسف إلى عامية شوهاء مبتذلة إذ يقول حمود(**لا يسمّى الشاعر شاعرا عندي إلا إذا خاطب النّاس باللّغة التي يفهمونها بحيث تنزل على قلوبهم نزول ندى الصباح على الزهرة الباسمة، لا أن يكلمونا في القرن العشرين بلغة امرئ القيس وطرفة والمهلهل الجاهليين الغابرين)**. وكل ما كان يهم (حمود) أن تكون اللّغة بسيطة وأن يكون الأسلوب غير معقد، أو بعبارة أدق عدم التكلف في التعبير عما يجيش في نفس الشاعر من أحاسيس، لهذا نجده يخاطب من يسميهم بالأحداث قائلا:(**يا أيها الأحداث، انبذوا عنكم التكلف والتنطع في اللّغة، وأفرغوا المعنى الجميل في اللّفظ الجميل،** فحمود لا

يريد أكثر من الصدق في التعبير، وهو الصدق الذي إن أخذ به الشاعر جنبه التكلف والتنطع في اللّغة، وجعله يعبر عن نفسه بدل أن يبقى ظلا لغيره من الأدباء..) .

5 ـ شـكـل القـصيـــــدة: فقد اهتم (رمضان حمود) بشكل القصيدة العربية وتحريرها من أسر الوزن والقافية، فهو يربط بين الشكل والمضمون، واعتبر أنّ تطور أحدهما لا يتم بدون تطور الآخر، وأنّ الشعر عملية متكاملة تلتحم فيها الصورة والموسيقى والكلمة مع الأحاسيس النّفسية المضطرمة في نفس المبدع، ويكون الشكل استجابة لكل هذه النّوازع النفسية :**(الشعر تيار كهربائي مركزه الروح، وخيال لطيف تقذفه النّفس، لا دخل للوزن ولا للقافية في ماهيته وغاية أمرهما أنّهما تحسينات لفظية اقتضاها الذوق والجمال في التركيب لا في المعنى، كالماء لا يزيده الإناء الجميل عذوبة ولا ملوحة وإنّما حفظا وصيانة من التلاشي والسيلان).**

وخلاصة القول: يعتبر(**رمضان حمود)** بالنسبة للأدب الجزائري الحديث، رائدا في ميدان النقد الأدبي ولا سيما في مجال نقد الشعر، فقد عالج قضايا جوهرية منها: رسالة الشعر ودوره في الحياة، وأوضح ما في المضامين التقليدية من قصور لمجاراة القرن العشرين، كما عالج بعض القضايا المعنوية: الصدق الفنّي، والذي اعتبره أساس نجاح التجربة الفنية والعاطفة ودورها في الشعر، واللغّة الشعرية، وكيف يجب أن تكون، والبنية الشعرية وماهية الشعر فنيًا. وهو في نظرياته تلك كان يصدر عن إحساس شخصي وتذوق جمالي ذاتي، زواج فيهما بين الرومانسية المتحررة والواقعية الهادفة، وقدم لنا كل ذلك في منهج متكامل، جمع فيه بين العرض والنقد والاقتراح.. عرض واقع الأدب العربي، ونقد الواقع موضوعيًا، ثم اقترح له الحلول الممكنة.

(رائـد الدعـوة إلـــى التجديد)

(الأديـب الشاعرـ النّـاقـد الفـذ ـ المصـلح الـوطنـــي)